وقال الدرويش

وصول النيزك

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَةٌ

اسم الكتـــاب: وصول النيزك
تـأليـــــف: د. عبد الناصر النجار
غلاف: عبير سعد
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
سنة النشر: 2025
النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع
القطع: 14*20

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 1615 / 2025

الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 599 - 2

دار الزيات للنشر والتوزيع

المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

9 789778 445992

وقال الدرويش

وصول النيزك

د. عبد الناصر النجار

رواية

الإهداء

إلى ذلك الدرويش الذي التقيته

حيث صورة أبي وروعته

حيث رقة شيخي وجفوته

ذلك الدرويش الذي كان نقطة تحول في تاريخي..

إلى هؤلاء الذين لم يعرفوا من الحياة إلا قشرتها وعابوها

إلى أولئك السادة القليل الذين سبروا أغوار الدنيا وعلِموها

إلى نفسي التي ذهبت بي كثيرًا حيث لا أهوى

ثم عادت بي ضاحكةً من جهلي وخداعي في كل مرة..

إلى ذلك القلم الذي كتب ما كنت أُحب أن أكتبه

وإلى تلك الكلمات التي أنا مدين لها بالامتنان والشكر..

إلى التجربة..

أُهدي كلماتي..

عبد الناصر النجار

[١]
الحلو غريب عن هنا!!

على مقهى الفيشاوي وأمام مسجد سيدنا الحسين كنا جميعًا ننتظر وصول النيزك.. أنا عن نفسي طلبت سحلب، وقلت - للشاب الواقف أمامي يمسك ورقة يكتب بها طلباتنا- كتر المكسرات وخلي السكر زيادة شويه.

بسطويسي صاحب العمر كان يجلس إلى جانبي، قال له:

- وأنا كمان سحلب دوبل والسكر واضح..

طعم السحلب في هذا الجو مع بعض قطرات المطر تعطي شعور بالدفء قبل الانصهار.

كان بيسو جايب معاه حسنولا والولدين التوأم حمزة وعمر، وربى دقنه علشان نبقى شبه بعض قوي والعيال يتوهوا فينا ويقولولي يا بابا زي ما بيقولوا له.

يبدو أن محبتنا قد أصابتنا بتشابه في الشكل.. هذه هي الدنيا، قلت لبيسو:

- أنا رايح أتوضى وأصلي ركعتين على ما يكون السحلب جهز، سألت عن مكان الوضوء الذي يقع منفصلًا خلف المسجد، وجدت طوابير من البشر تقف حدثت نفسي متعجبًا "سبحان الله" إيه الإيمان والتقوى اللي نزلوا على الناس فجأة كده!؟

يبدو أني قلتها بصوت مسموع، وكان أمامي في الطابور شيخ طاعن في كل شيء.. حتى في السن، قال ساخرًا:

- ولا تقوى ولا حاجة دي عالم بنت ستيين..... دا بس البرد حاصرهم وداخلين يفكوا حصر..

لم أرد عليه من الحرج أو الخجل من كلماته، لكنه أكمل:

- شكلك ابن ناس إنت إيه اللي جابك هنا؟! قلت له:

- جاي أتوضى.. قال لي:

- ما أنا عارف.. إنت إيه اللي جابك المكان ده أصلًا؟! أجبته:

- أنا جاي أزور سيدنا.. قال:

- وإيه اللي يجيبك هنا ما سيدنا في كل مكان، ولما تشتاق له هو اللي هيجيلك..

قلت بصوت مستغرب: إزاي يا حاج؟! ردد حالمًا:

- اللقا يا ابني نصيب.. والشوق لما يصيب يقرب الحبيب، رددت بتلقائية -عليه الصلاة والسلام- سألني:

- وإنت شغال ولا عواطلي؟!

قلت له: شغال جراح.. قال لي:

- الله أكبر.. الطلب عليكم كتير اليومين دول، الشر كتر وقلة الضمير انتشرت والخلق بقى قلتها أحسن..

كان الطابور يسير ببطء والرائحة المنبعثة من الأجساد تقطع حبل الوريد، ناهيك عن الرائحة القادمة من تلك الخرابة المكتوب عليها دورة مياة، يبدو أن بعض الذين دخلوا لقضاء حاجاتهم قد ماتوا وتعفنوا في الداخل

وجثثهم تحللت وأعطتنا هذه العطور المميتة..

على الناصية تجلس امرأة أظنها خريجة سجن القناطر -في أحسن الأحوال- في يدها خيزرانة من النوع المعتق بزيت التموين القديم، تقول كل فترة:

- في الطابور يا بهايم.. بالدور يا بقر نايم..

كان وضعي في الطابور قد اقترب من مرقدها، نظرت إلى برضا واستغراب وقالت:

- الحلو غريب عن هنا؟! أشرت إلى نفسي وقلت لها:

- حضرتك تقصديني أنا؟!

ضحكت كالغوازي واقتربت مني وقالت:

- حلاوتك يا بتاع حضرتك.. الأفندي أكيد غريب مش من هنا.. أنا المعلمة حسنات صاحبة المخروبة.. أومال إنت مين يا حلو إنت ياللي ريحتك ترد الروح؟!

أخرجتني من الطابور وأنا غير قادر على فهم ما يحدث أو مقاومته، وأنا أقول في نفسي:

- أنا إيه اللي جابني هنا فعلًا؟! كنت إتوضيت على القهوة بإزازة ميه وخلاص.. صرخت المعلمة حسنات وهي تضع يدها في صدرها

لتخرج مفتاح مقاس كبير وتنادي على "البت نجفة" ذات العشرين ربيعًا، والتي غالبًا تمارس عملًا آخر أظنه غير أخلاقي..

تأتي نجفة وهي تردد "نعمين يا معلمة"، تلتفت لها حسنات:

- خدي الأووستاذ دخليه الحمام الخصوصي بتاعي وأنا جاية وراكم..

نظرتني نجفة بعين تفيض كل شيء لا صواب فيه، وضحكة تدخل اللومان اللي يصعب بعده الخروج، وقالت وهي تمضغ لبان -عرفت فيما بعد أنه لبان دكر مع إنه ميبانش عليه:

- شكلك دخلت مزاج المعلمة يا أووستاااذ.. دي متطلعش المفتاح غير للغاليين قوي، وضحكة أخرى من النوع المشبوه كنت انتظر بعدها بوليس الآداب بكلبشاته وسلطاته وبابا غنوجه.. إلا أن البوليس واضح إنه مش شغال في اليوم ده.

قلت لصاحبة الصون والعفاف نجفة:

- خير يا أوستاذة هو فيه إيه؟!

وضحكة ثالثة من النوع الذي يعجل بوصول النيزك.. أوستاذة؟؟؟!!!! دا إنت اللي أووستاااذ.. يا أوستاااذ.

[٢]
نجفة

كانت نجفة من النوع المضيء في الحواري المُظلمة، تلبس جلبابًا أسود اللون عليه بعض الخرز أو الترتر ضيق حبتين -أو تلات حبات، أو كل الحب اللي شفته قبل كده- وهي ذات جسم مرسوم على يد أسطى من بتوع الخان، وفي ساقها اليمنى تلبس خلخالًا من عند الأسطى عليوة اللي أخد مقاس الخلخال مائة مرة من باب سبك الشغلانة.. ومكفاهوش.

الخلخال واضح للعيان إذ أن نجفة يصعب أن تسير دون أن ترفع طرف العباية ليظهر من سيقانها ما كتبت الظروف له الظهور، والعباية مفتوحة من منطقة الصدر بزيادة شويتين حتى أني ظننت أنها أم مرضع إلا أنها أكدت لي أنها لسه ما انكشفتش على راجل وضحكة رقيعة يتبعها كلمة "في الحلال".

في إيدها اليمين غويشتين دهب عيار يومها اللي لو ما صابش يدوش وأهو كله محسوب عيار ٢١..

المسافة بين مرقد المعلمة حسنات والحمام الخاص حوالي مائتي متر في أفضل الحالات.. كنت أسير خلفها بمسافة متر تقريبًا وسمعت في هذه المسافة ما لم أسمعه في عمرى كله.. شباب على جانبي الشارع حلاقتهم غريبة ودرجة وعيهم أغرب، تلقيحاتهم من النوع الرخيص، والتلقيحات مزدوجة معظمها على نجفة.. لكنني لم أنج من بعض الأوصاف المُسيئة..

قال أحدهم:

- إيه التلموذ ده!! إنتم فتحتوا فصول محو أمية!! ليرد آخر عليه:

- أمية دي تبقى خالتك.. ليُدلى آخر بدلوه في الحوار:

- سيب الخروف يعدي، الدبح علينا حق.. وقال آخر وهو يكلمني:

- هو إيه اللي جاب القلعة جنب البحر؟!

ضحكات تفوح منها رائحة الانحطاط، وأنا أشاهد عالم لم أدخله من قبل.. ونجفة كانت توزع الشتائم بالعدل على كل من لقينا، وبألفاظ لا يمكن ذكرها أو حتى التنويه عنها، كنت

حاسس إني في قاع حفرة لممارسة الخطيئة الكبرى المسماة بالرذيلة الأم.

فجأة خرج مذكر غير سالم يحمل مطواه فتحها في وجهي قائلًا:

- طلع اللي في جيبك يا حيلتها.. توقفت لحظتها وكدت أخرج محفظتي إلا أن نجفة التفتت ورأت ما حدث.. بدأت الكلام بصوت حنجوري ممتد، وألفاظ تدل على الإستياء ثم سبت الرجل بكل وصف قبيح.. بداية من أمه التي أتت به إلى الدنيا بدون عقد من مجموعة من الرجال الرُحل.. إلى وصفه بالمختل جسديًا.. إلى صفعة قلم مخبرين من النوع المزدوج ليسقط على الأرض

وتقول بصوت فاجر:

- الدَّكر يقرب منه أو يفوقه وأنا هخلي اللي ما يشتري يتفرج عليه.. آه يا حارة لولا الحباية الزرقا كانت اتسمت حارة النسوان..

ثم سحبتني من ذراعي وقد بدلت معالم فجورها الخشنة إلى أنثى من نوع آخر.. وسألتني بابتسامة بسيطة:

- أظنك عمرك ما شفت الأشكال الو..... دي قبل كده لم أرد من فحش الوصف لكن بدا على وجهي الامتعاض المخلوط بابتسامة العتاب..

أخذت نفسًا عميقًا من هواء المكان الملطخ برائحة السقوط فى الوحل وقالت:

- إلا إنت اسمك إيه يا أووستاااذ؟!

قلت بهدوء: اسمي ناصر.. قالت:

- والنبي باين عليك..

لا أدري إيه اللي باين عليا!! لكنني قلت لها "شكرًا".

قالت وقد اقتربت مني وأخذت نفسًا عميقًا وكأنها تستنشقني:

- أيووووه لو الرجالة كلهم كده.. وريحتهم ذي ريحتك..

رجعت قليلًا للخلف فسألتني:

- إنت شغال ولا من ولاد العز اللي ميلزمهمش الشغل.. قلت لها:

- لا أنا شغال.. هنا ظهرت المعلمة حسنات وأكملت السؤال.. وزينة الرجال شغال إيه؟؟!

قلت لها: دكتور..

ويا لهوي من اللي تدخل السجن بدون محاكمة تخرج من لسان نجفة تكمل من بعدها حديثًا مريبًا:

- دا أنا محتاجة أتعالج عندك اللي باقي من عمري..

وتعض على شفتها السفلى، وتهز رأسها وقد ضاقت فتحة عينيها وصوت زفير حار يخرج من صدرها وقد أسندت ظهرها لحائط لا مبكى له.. لتكمل:

- دا الكشف على إيدك شفاا. وتصرخ المعلمة فيها:

- غوري يا بنت الدايخة، فترسل لي بقبلة في الهواء وتقول:

- أخرااابي لو يملكوني منك كنت كتبت عليك فوري.. وغصب عنك.. والشهود الزور ماليين المكان.. لكن مش مكتوبة، مستنياك لو رجعت من نفس الطريق، ثم زغردت بصوت جهوري وقالت:

- صبحية مباركة يا أووستاذ.. واضح أن الوضع مقبل على كارثة..

إن هذه الحارة صورة مُصغرة أو مُكبرة حسب قدرة عينيك على الرؤية المُقدسة وغير المُقدسة..

هنا يسقط كل شيء.. بدءًا من الأخلاق وانتهاءًا باللاشيء..

هنا اللاشيء.. هنا بوابة الجحيم.

[٣]
حسنات

وصلت المعلمة حسنات إلى حيث وصلت..

المعلمة حسنات أربعينية العمر وتدعي أنها لم تصل إلى الثلاثين.. متصبينة وحاطة في عنيها قنطار كحل، جغرافيتها لم تدهسها عربة التاريخ كثيرًا، لها صوت مشروخ ربما من شرب الدخان أو من كثرة الصراخ.. تلبس عددًا لا بأس به من قطع الدهب عيار ٢١، وتحمل "لوباين" موديل السنة غالبًا مسروق، لكن هي واخداه بالمال الحلال..

متغندرة بزيادة ومقطعة في الحلال تلات رجالة كلهم زارهم ملك الموت وهي على زمتهم، فورثتهم جميعًا ونفسها تعيش في ضل راجل من اللي معدوش موجودين -تلك هي روايتها- خراط البنات خرطها بدري، ملهاش في البطال كله سواء مخدرات أو لا مؤاخذة، لكنها صاحبة مزاج خاص في الرجالة، واللي ميجيبوش القرش يجيبه المأذون..

معندهاش غير بنت واحدة من جوازتها الأولى مع المعلم عوف، الخير عندها كتير بس فين النِفس اللي تصرف، والوحدة قاسية لو كنت في حضن اللي متحبوش..

حضرت المعلمة وفتحت دورة المياة ونجفة تراقب عن كثب، وقالت بصوت يدعي الاهتمام:

- اتفضل يا أوستاذ.. وضوء ولا فك حصر؟!

وضحكة رقيعة تملأ الهواء من نجفة وبصوت مسموع تقول:

- لا دا سِنه مش سِن حَصر..

إحمر وجهي خجلًا من اللغة الرخيصة فقلت لها:

- يا حاجة أنا عايز أتوضى..

لتتعالى ضحكة خارج التصنيف من نجفة بعد كلمة حاجة.. ودعاء مخلوط بعُهر أزلي:

- تعيشي وتنوليها يا معلمة..

سقطت عيني على صنبور ماء خارجي فتحته وتوضأت في عُجاله، وإذا بالمعلمة تجفف ذراعي بفوطة من النوع الذي لم يجفف طاهرًا من قبل.. كان صوت الطبلاوي يخرج من مئذنة

الحسين قارئًا الآية الخامسة من سورة الحاقة {فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ}

كانت أذني تسمع الشيخ وهو يقرأ، وكانت الآيات تنذر في قلبي باقتراب النيزك، وكنت على وشك أن أسألهم لكن حسنات قالت:

- ما تتفضل تصلي فوق.. إنت ضيفنا يا أوستاذ..

تأكدت من ملامحي التي تغيرت بعد الآية أنني لست قادمًا لغير الوضوء، قلت في سكينة ووضوح:

- شكرًا يا حاجة، جزاكِ الله خيرًا.

لم تضحك نجفة هذه المرة، ولم تتكلم حسنات، لكن فضولي كان أسوأ من سير الأحداث حين قلت لحسنات التي تسيل وهمًا وسعادة وطمعًا:

- هو أنتم مسمعتوش إن النيزك على وصول.. يعني بعد شوية كله بح ونتقابل عند رب كريم.. قالت بغير فهم:

- زيزك إيه يا أوستاذ؟! إيه الزيزك ده؟!!

شرحت لها على عجالة أنها مسألة ساعات والدنيا تتسوى عاليها بواطيها:

- وضعت يدها على صدرها لتستر ما ظهر منه

وقالت في قلق:

- يا خرابي.. إيه الكلام ده!! زيزك إيه الله لا يسيئك دا إحنا مقضيينها وحل.. إنت بتتكلم جد يا أوستاذ؟!! قلت لها:

أيوة.. قالت طب إحلف بمقام سيدنا.. قلت لها: من غير حلفان..

كانت نجفة لا تزال تقاوم الفكرة، كانت جغرافيتها وتاريخها وفلسفتها في الحياة مسألة من النوع اللحظي قصير التيلة، كان المُقرئ في المسجد قد وصل إلى قوله تعالى:

{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ "13" وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً "14" فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ "15" وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ "16"}

كنت ساعتها لا أسمع ما تقوله حسنات، ولا ما ترجوه نجفة، أشرت إلى المئذنة وقلت بصوت واضح:

- ركزي يا حاجة في كلام ربنا مش باقي كتير، دي آخر فرصة لينا بعدها الباب هيتقفل.. وأعطيتها ظهري

وانطلقت عائدًا ونجفة تمشي خلفي تنادي:

- طب استنى يا أوستاااااذ.. عايزة أسألك سؤال، والنبي تستنى.. متخلينيش أمسكك من إيدك وأضيع وضوءك... يخرابي على طعامتك!!!

"في تهذيب البشر من لم تؤدبه الكلمات.. تُصلحه اللكمات.. وحين تسيل الدماء من فمه يلفظ ساعتها كلمات هي مكنون قلبه وسر حياته.. فإما كلمات تذهب به إلى عليين، أو تهوي به إلى أسفل سافلين"

[٤]
بركاتك يا نجفة

دخلت المسجد على عجالة لأصلي العصر الذي كاد أن ينقضي وقته.. على باب المسجد الخلفي رجلان يجلسان بجوار مجمع للأحذية، يأخذ الواحد منهما حذاءك ويعطيك قطعة خشبية عليها رقم الخانة التي وضعه بها.. سلمته الحذاء وأخذت قطعة الخشب، دخلت فإذا بإناس وقد تجمعوا حلقًا حول رجل ظننته في أول الأمر يهذي، ويحرك رأسه في اتجاهات تصيب العقل بالارتجاج، استقبلت القبلة وصليت العصر وأنا فاقد لنصف عقلي مما أسمع من أصوات..

قمت من مقعدي وتوجهت نحو المقام لأُلقي السلام على سِبط رسول الله -إن كان حقًا له في المقام وجود- لكن لا ضير إنها النية الحسنة نحو خيرة أهل الأرض والدنيا.

وقفت متأدبًا وقلت:

- السلام عليكم آل بيت رسول الله.

جفت الكلمات في حلقي وتذكرت مقتلة أهل البيت الكرام وقلت في نفسي "لله في أقدار عباده شوؤن"، ماذا لو لم يُقتل الحُسين؟! بل ماذا لو لم يمت الحسن بالسم؟! بل ماذا لو لم يقتل علي -رضي الله عنه-؟!

ماذا لو لم يقتل عثمان -رضي الله عنه- بل ماذا لو لم يقتل عمر -رضي الله عنه-؟!

وكأن القتل سُنة في التاريخ..

إن التاريخ ينتقل من أيدي الشرفاء النجباء المخلصين إلى أيدي أصحاب الهوى أو المصالح دائمًا على شفرة السكين..

إن الانتقال السلمي للسلطة يحتاج إلى صالحين حقًا أو إلى فاسدين صدقًا لكنهم تحت سيف القانون وعدله وأنا أقول في نفسي "لله فى أقدار عباده شؤون"، كان صوت المؤذن يكسر صمت الكلمات في عقلي وأنا أردد ساعتها خلفه الله أكبر.. الله أكبر..

وأنا أنتظر الإقامة كنت أرقب وجوه الناس عن كثب، لا أحدهم ولا غيرهم يشغله أن النيزك على وشك الوصول.. فكرت أن آخذ

الميكروفون وأخطب في الناس لأخبرهم إلا أن شيخ المسجد منعني وقال لي:

- الله يسترك المسجد مليان مخبرين متوديناش في داهية.. الجامع للصلاة وبس.

اعترضت على كلماته وقلت:

- الجامع للصلاة ولمصالح العباد إذا لزم الأمر، لكنه رفض وأقام الصلاة على عجالة.

وقفنا لنصلي المغرب ثلاث ركعات وكأننا في سباق مع القضاء، صليت ركعتيّ السنة وتوجهت إلى شيخ المسجد لأخبره بالحدث، قلت له أن النيزك سيصل

والناس بحاجة أن يعرفوا، صمت قليلًا وكأنه لم يرد أن يفهم ثم قال لي:

- معاك إذن من الأمن؟!!

- أمن إيه يا عم الشيخ!! بقولك بعد شوية أنا وأنت والأمن هنكون في خبر كان..

- بس يا إبني دول برده أولي الأمر..

- أمر إيه ونهي إيه!! بقولك فيه نيزك..

- بس إنت كده هتعرضني للمساءلة..

- المساءلة قدام مين؟! بعد شوية هتكون المساءلة قدام ربنا..

- ونعم بالله.. بس أنا يا إبني في الأول والآخر موظف عندهم واللي إنت هتعمله ده هيعمل بلبلة.

كان ثالثنا غير الشيطان عامل النظافة بالمسجد ذلك الذي يعامله الشيخ وكأنه العبد في زمن الجاهلية الأولى، قال الرجل بصوت شجاع:

- نيزك إيه يا أستاذ؟! شرحت له الحكاية فقال:

- أشهد ألا إله إلا الله.. وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله.. إنا لله وإنا إليه راجعون..

والتفت إلى قائلًا تعالى يا أستاذ ونادى على القوم قائلًا:

- يا جدعان.. يا عم إنت وهوه.. استنى ياللي خارج منك له، وأشار إلى وأعطاني المايك قائلًا:

- قول الله يفتح عليك، سمعهم المصيبة..

وسار بين الناس في الجامع يأمرهم أن ينتبهوا للأمر الخطير، كان الناس يخرجون من المسجد ولا يسمعني منهم أحد قلت لمن أعطاني أذنه:

- إن النيزك قادم وغالبًا سيكون الليلة..

على يميني حلقة ذِكر كانت قد بدأت ورجل أربعيني يلبس غطاء رأس أخضر، وكل من يمر يُقبل يده وينياديه بسيدنا..

إضاءات المسجد كانت تزداد رويدًا رويدًا.. وكلمات الذكر كانت خالية من الفكر، ومُنشد ذو صوت يشبه في نشازه صوت الصاجات في جنازة مطرب..

خرجت من المسجد ومعي عم أيوب عامل المسجد، أما الشيخ فقد اتخذ مكانًا غربيًا ليبلغ فرد الأمن عبر الهاتف كيف أن رجلًا غريبًا أراد أن يبلبل فكر الناس بكلام فارغ عن النيزك والعياذ بالله.. وكيف أنه تصدى لهذا الفكر الهدام.. وكيف أن أيوب عامل المسجد قد انساق وراء هذه الإشاعات المغرضة وصدقها..

وقفنا في الطريق إلى المقهى لأربط حذائي، جاءني شاب يحمل فوق رأسه خبزًا وقال لي "أطْعم"..

لم أفهم قوله لكنه شرح لي أن أشتري ألف خُبز ليوزعها هو على الفقراء، شكرته وأنا أسمع مجذوب يغني بصوت الموت..

ياللي تجود ع العباد المولى هيزيدك..

تطعم وتكسي الغلابة وربنا يزيدك..

وراح يبارك بطول العمر وف إيدك..
وإن جت في يوم المِحن والله يوم عيدك..

كان صوت التلفاز بمعلوماته الكاذبة هي أصدق ما يصدقه القوم..

جاءنا البيان التالي من الوزارة ال في المغارة، انتشرت في الآونة الأخيرة مجموعة من الشائعات الغرض منها هو بلبلة الرأي العام وخلق جو تشاؤمي لدي المواطنين، وهذه المعلومات لا أصل لها من الصحة، وجاري إتخاذ التدابير اللازمة حيال الشرذمة المندسة بين أبناء الوطن..

الله.. الوطن.. الشعب..

هذا هو الثالوث المقدس في هذا الوطن المكردس، انتشرت كلمات التلفاز كالنار في الهشيم وأصبح الكلام عن النيزك مسألة أمن قومي..

بركاتك يا نجفة..

[٥]
منتهى العبث

يبدو أن أمرًا غريبًا يحدث في هذه البلد، لكن أحدًا من أهل الحل والعقد لا يُخبر الناس بشيء، خرجت من المسجد عائدًا إلى المقهى لانتظار النيزك وأنا أسأل نفسي ألف سؤال..

كيف يفكر هؤلاء القوم؟! وماذا سيكون رد فعلهم لحظة وصول النيزك حقًا؟!

إن الدولة غير مستعدة لاستقبال النيزك بحجة أنه أمر فوق قدراتها، وأن رجال الدين سيقولون أنه غضب الرب على الخارجين، وأن أهل العلم هم أجهل الثلاثة في بيع الكلام للجاهلين.. إن الأمر مخيف إلى حد الوجع، ومقلق إلى حد الخوف، ومدمر إلى حد اليأس..

بينما أسير في الشارع استوقفني رجل أمن برتبة غير معلومة كان يقف بجوار سيارة بوكس من النوع الجديد ذاك الذي يتسع لسجن الناس والسير بهم في الطرقات -سجن نقال بلغة أرباب السجون، يلبس بنطال أزرق وقميص لونه داكن لم أستطع

التعرف على أصل لونه، وعلى جانبه مسدس مصنوع لبث الرعب حالة السؤال، وفي يده لاسلكي من نوع رأيناه كثيرًا في الأفلام.

يقف بجواره فردي أمن من طائفة البغال عديمي العقل والحكمة يتستر هو فى ظل جهلهما.

- من فضلك يا أستاذ بطاقتك.. نظرت إليه بهدوء، وسألته:

- أنا؟ رد أحد الرجلين عديمي الحكمة:

- إنت شايف حد غيرك الباشا بيكلمه؟

أخرجت بطاقتي من جيبي فسقط منه شريط علاج لضربات القلب، ناولت رجل الأمن البطاقة ونزلت لآخذ العلاج، إلا أن أحد الرجلين سبقني وأمسك بالشريط

ونظر في اسمه، ولأنه أجهل من دابة ولا يعرف القراءة والكتابة قال بصوت عالي:

- دا ترامادول ده ولا إيه؟! وقال الآخر:

- مفيش شريط فياجرا؟!

نظرت إلى رجل الأمن نظرة أقول فيها:

- لِم كلابك الضالة.. صاح بهما:

- بس يا عباس إنت ورجب.. ثم قال لي:

- حضرتك دكتور جراح وأستاذ جامعي؟

هززت رأسي بالإيجاب، فسألني:

- وإيه اللي جايب حضرتك مكان ذي ده!!؟؟

قلت له: زى ده إزاي يعني؟! قال:

- مكان مش مناسب لمكانك ومنصبك.. أجبته متمتمًا:

- اللي باقي مش كتير وكله هيتسوى بالأرض، يا حضرة الظابط إحنا على أبواب النهاية، النيزك لما هينزل هيخلي عاليها واطيها..

قال الضابط بغضب:

- وإنت إيه دورك؟ ومالك ومال النيزك؟! دي أقدار وربنا كاتبها هتكفر بقى ولا إيه؟

أجبته:

- لا مش هكفر بالعكس دا أنا جاي أقول للناس تلحق تتوب..

- وإنت مالك ومال الناس؟! هما كانوا من بقية أهلك؟!

استفزتني طريقة الكلام لكنني قلت له:

- أيوه طبعًا من بقية أهلي.

لم يعجب كلامي بغال السبتية، فقال أحدهم رد عدل على الباشا يا بأف..

بأف!! أنا يتقالي بأف من كائن أفضل حالاته أن يكون نتاج تهجين خنزير على خرتيت.. التفت إليه وقلت له:

- مين اللي بأف يا بغل!!

هوى على وجهي قلم من قلم المخبرين أفقدني اتزاني وكدت أهوى على الأرض، وطارت دمعة من عيني على غير قدرة مني على منعها من قوة الصفعة، ومن حرارة الخيبة، ومن ضعف الهزيمة.. صرخ الضابط في بغل الأمن بعد أن تيقن أن الهدف قد تم من صفعي وقال:

- بس يا رجب عيب.. أنا واقف.

نظرت إليه وقد سقط كل خوف مع دمعتي التي لم أستطع كبحها وقلت له:

- عيب لأنك واقف؟!

هي المسألة فقط عيب لأنك موجود.. إنت يا حضرة الظابط صورة حقيقية للي رسمتوه بأفلامكم في ذهن المواطن، إنت هتعرف قيمتي بعد شوية إنت وغيرك وحميرك وبغالك وكلابك.. ساعة الجد أنا اللي هتكلم واللي زيكم هيسمع بمزاجه أو غصب عنه.. إنت محمي بينا مش حامينا..

كان الضابط حقًا في حالة اضطراب نفسي، والبغل الذي صفعني من النوع الذي رزقه الجهل حكمة تمنعه من الفهم..
قال معتذرًا:

- أنا مطلبتش منه يضربك لكن هو اللي حيوان، وذي ما عندكم ممرضين جهله، عندنا أفراد أمن جهلة..

يعني أنا مطلبتش منه يهينك.. قلت له:

- هو لم يهينني.. هو استقوى بك على.. وهذا عار.. إن دور رجل الأمن أن يشيع الأمن في نفوس المواطنين، لا أن يبسط عليهم سلطان الأذى بجهله بقيمة السلاح الذي يحميهم به، وبمرض عقله الذي لم يتربى على العدل..

إن سلاح الضابط ليس كسلاح اللص، فإذا كنا غير قادرين أن نفرق بينهما، فإن النيزك سيصل أسرع مما تخيلنا..

كان الضابط غير مدرك لكل الكلمات ناهيك عن البغلين الذين لم يدركا شيء من الأساس..

فجأة تظهر نجفة وهي تهطل بتضاريسها الهشة على قوم فاسقين، رأت الموقف فاقتربت من رجل الأمن وقد كشفت عن ساقيها وقالت:

- مين قل أدبه على الأوستاذ؟!

أما إنك بلد وس** صحيح والله ما ينفع معاكم غير العيال المبرشمة، ثم وضعت يدها على صدرها وقالت:

عليا الطلاق من دول وما أبقى نجفة اللي ما حد يعرف لها أب، إن ما وريتكم يا شوية مخبرين أوسا*..

كان كل شباب المنطقة من زوار نجفة قد حضروا، ولأن نجفة لها كلمة كبيرة عند المأمور، الموضوع اتلم ونزلت من البوكس ووقفت في الشارع وبجواري هؤلاء الشرزمة من حثالة أهل الأرض في لحظة شرف غير مفهومة أو مبررة..

كان يبدو عليَّ الغضب، ووجهي يكسوه الوجع والليل والشعور بالغربة وأنا فى أحضان الوطن..

قالت نجفة:

- عليا الطلاق من *** -واختارت كلمة لم أتخيل أن يقسم بها بشر من دمامة الكلمة وسوء الاختيار- لأعرفك يا رجب يا عرة الرجالة، يا كسر مَرّه ملهاش دكر يلمها..

وحياة شعري اللي ما إتكشف على راجل في الحلال أخلي سعرك بنكلة عند اللي يسوى واللي ميسواش يا مَرّه وطلعلها شنب هتعمل علينا راجل!!

كان الضابط سعيدًا بإهانة رجب، وأنا كنت مصدومًا مما يحدث، كيف لمثل نجفة أن تدافع عني؟! وكيف لها أن تهين رجل الأمن؟ وكيف لرجل الأمن أن يهينني؟!

ما هذا العبث!!

ليعلو صوت محمد رفعت فوق ظلمة الليل مبشرًا..

{تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}

[٦]
الدرويش.. بداية الحكاية

"آه يا بلد كفرة الخسف فيكم حلال".

كانت هذه كلمة درويش في زِي شحات أو العكس، عليه من سلاسل السِبَح الكثير، وإن كان لا يُسبح بها، مُتكأً على عصاه لا يهش بها على غنمه، ذو عمامة تحمل درجات الأخضر المتفاوتة، درويش يسيل فكاهة حين يتكلم وحين تصحبه لا يسهل عليك تركه.

اقتربت منه وسألته الصحبة، فرد على بشيء من الوجل:

- روح يا ابني إلعب مع اللي يشبهلك، ابتسمت له وقلت:

- وفي رأيك مين اللي يشبهلي؟!

قال مشيرًا هنا وهناك دون هدف محدد:

- البيه والباشا والظابط والرابط والحرامية الكبار... مداااااااد..

ثم أكمل سائلًا:

- ألا قولي يا سيدنا البيه قميصك ده بكام؟ وجزمتك اللي وشي باين في نورها دي بكام؟ وريحتك اللي تشفي العليل النقطة منها بكام؟! روح يا سيدنا وسيبنا لوعيدنا.. مداااااد.. قلت له في هدوء:

مش مسألة لبس ولا غنى ولا فقر المسألة.. قاطعني قائلًا:

- المسألة دي للي زينا.. إحنا اللي نشحت ونتعب وأنتم تسموها المسألة.. إحنا اللي نمرض ونموت، وأنتم اللي تسموها المسألة.. إحنا اللي نحارب، وأنتم اللي تنتصروا..

مداااااد..

كُنت مُصِر على صحبة الدرويش وبأي ثمن، قلت له:

- متيجي نتغدى مع بعض وأهو يبقى عيش وملح.. قال ساخرًا وبصوت متهكم:

- واضح إنك متعود تاكل.. وفطرت كمان.. أنتم مزهقتوش من الأكل؟؟!

لم أنطق ساعتها، وأدركت أن كلماتي جارحة.. هو لم يتناول أي طعام طيلة اليوم، وربما بات بغير عشاء، وغالبًا لم يتناول اللحم منذ زمن.. قلت له محاولًا مرة أخرى:

- متيجي أعزمك عند الدهان وأهو يبقى عيش ولحمة..

وضحكت ضحكة لا محل لها من الإعراب عند هذا الدرويش..

قال لي ببعض الاستغراب:

- إنت عايز مني إيه يا ابني؟ ولا عايز تتفرج عليا زي الحاوي؟! إنت من عالم غير عالمنا روح يا ابني الله يهديك..

في هذه اللحظة مر موتوسيكل لا يحمل لوحة أرقام أغلب الظن أنه مسروق، وكان أمامنا حفرة مليئة بالماء والطين وربما أشياء أخرى.. سقطت عجلة الموتوسيكل الخلفية في الحفرة فانطلق الطين والماء والعفن ليرسم على قميصي ذو اللون الأزرق الباهت لوحة من القاذورات، ويقع على وجهي مثل ذلك، لتزكم رائحته العفنة أنفي..

رفعت يدي لأمسح وجهي بسرعة وبعض غضب يشتعل بداخلي، فقال الدرويش:

- مداااااد.. واضح إن دي البشارة.. كفارة بإذن المولى كفارة.

معانا في الطين ولا الوحل مش توبك!!

ولا هتصرخ كما الأسياد من توبك!!

وتقول أذاني الغبي ولا كنت من نوبك..

مداااااد..

فهمت قصد الدرويش دون سؤال، تركت القميص وعليه الوحل، ومسحت يدي في بنطلوني الجينز..

لأبدأ مع الدرويش جزء من الحكاية..

إن البشر كائنات تشبه الكربون، كلما زاد الضغط عليه تحول إلى ماس عالي السعر والقيمة..

وللماس أشكال عدة.. الدرويش أحدها..

[٧]
عيش وملح عند الدهان

جلست أنا والدرويش ذو الصيت العظيم - كما يبدو- عند الدهان، سألته عما يريد أكله فقال:

-على زوقك يا صاحب الواجب.. كان كل من يمر يُلقي عليه السلام، ودائمًا ما كان مصحوبًا بكلمة "سيدنا"، حتى أنني بعد قليل من الوقت كنت أناديه أيضًا بسيدنا..

طلبت له بعض الطعام الجيد.. كباب وكفتة وجوز حمام مشوي وشوية ممبار وسلطة ومية ساقعة وبيبسي.

فلما وُضع الطعام أمامه قال:

- تلك الجنة التي وعد المتقون..

لم أرد عليه لأنني أدركت أن كثير من الصمت تهب كثيرًا من العلم، وتصنع عظيمًا من المعرفة.

سألته أن يبدأ تناول طعامه، قلت له:

- سم الله.. فقال بسم الذي رزق ووهب وبارك وأعطى

نسألك يا ربنا الجنة..

مد يده ومددت يدي، أخذ قطعة من كفتة صنعت على الفحم ووضعها في فم قطة كانت تلعب تحت أرجلنا، فما أن طَعِمتها حتى أحدثت صوت سعادة ونداء عطاء

جمع لنا من رفاقها ما جعلنا وسط حديقة من القطط.

قلت له:

- كُل يا سيدنا وبعدين نعطيهم، فرد:

- هم الطوافون علينا..

وضعت له بعض اللحم في رغيف ولففته له كالسيجارة وقلت له:

- كُل ده يا سيدنا..

أمسك الرغيف بيده وطارت عينه بعيدًا، وصاح بصوت عالي:

- بت يا نجفة.. ظهرت نجفة في التو وكأنه استحضرها من العدم، ناولها الرغيف ذو اللحم معه حمامة مشوية وقال لها "رُمِي عضمك باللقمتين دول".

أخذتهم إلى فمها مباشرة وكان الجوع يسيل من فمها بذورًا لتملأ الأرض شجيرات ثمراتها أمعاء خاوية ذات صوت لا يخطؤه جائع.. ثم ناولها بعض المخلل وقال:

- خدي المخلل ده يفتح نفسك..

جلست صامتًا أرقب المشهد عن كثب..

مرت طفلة صغيرة تبادلت معه نظرة محبة، فقال لها:

- تعالي يا سكر.. وأمسك بحمامة مشوية انتزع منها كل قطعة لحم وناولها لها في فمها الصغير، وأطعمها الأرز الذي فيها، وكان بين اللقمة والأخرى يأكل جلد الحمامة المشوية، ثم فتح زجاجة البيبسي يسقيها منها حتى شَبِعَت، مسح فمها بطرف ثوبه البالي، فوقفت تلعب حولنا كالفراشة..

أشرت إلى صاحب المطعم لأطلب له طعامًا غير الذي تصدق به، فقال رافضًا:

- وكل ده هنعمل بيه إيه؟!

كان الطعام قد نفذ حقًا ولم يبق إلا بعض الخبز والمخلل

فبدأ يأكل منه بهدوء، تناول كسرة الخبز ببعض الملح وبعض الجزر المخلل وشرب من الماء وقال "الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا من غير حول لنا ولا قوة".

ثم نظر إلى داعيًا:

- أطعم الله من أطعمنا وسقى من سقانا.

بدا هذا الدرويش الغريب كما لو كان يقرأني من الداخل، نظر نحوي وقال مبتسمًا:

- اسألني عن اللي عايز تعرفه.. فقلت له:

- قول إنت ال عاوز تقوله..

- إسألني وهتفهم؟! تبسمت وقلت له هحاول.

قال بصوت مشروخ:

- كلنا نجفة..

نظرت نحوه صامتًا، فقال مكملًا:

كلنا نجفة بس الفرصة مجاتش كاملة..

كلنا القطة اللي حامت حوالينا بس حتة اللحم ما اتوفرتش..

كلنا العيل الغلبان اللي بيدور على حد يعطف عليه..

كلنا غلابة.. حتى اللي مننا ديابة..

لكن القدر قال كلمته..

مداااااد..

قلت له محاولًا الخروج من القوقعة:

- هو إنت اسمك إيه؟

-

وكانت الصاعقة إذ قال لي ضاحكًا:

- أنا اسمي جرجس بس محدش يعرف..

مداااااد...

[٨]
كلنا نجفة!

كان رد الدرويش غريبًا جعلني أتخيل كيف أناديه!!

"سيدنا جرجس" قلتها وأنا بين الضحك والاستغراب

وقلت له ملاطفًا:

وإنت يا سيدنا تبعنا ولا تبعهم؟ فقال بهدوء:

- تبعنا طبعًا.. لكن الإسم ده له حكاية معايا وله عندي حواديت.. انصت للدرويش وهو يحكي، قال لي:

- أمي كانت عيالها بتموت وجيرانها نصحوها تسميني جرجس علشان أعيش، ويا ريتني لا جيت ولا عشت الأيام اللي ما يعلم بيها إلا اللي خالقها..

ثم حكى لي كيف أن هذا الاسم جر عليه من المشاكل ما أتعبه كثيرًا، لقد كان اسمه كاملًا "جرجس محمدين حسن المصطفى طه"، زملاؤه في الدراسة من النصارى

كانوا يدعونه للكنيسة يوم الأحد، ومن المسلمين كانوا يتهمون أباه بالكفر، حتى أنه لما قُبض عليه في مظاهرات الجامعة كان محل قلق الأمن لغرابة اسمه..

تخطينا معضلة الإسم سريعًا، فقد جاء صبي القهوة بكوب شاي صعيدي مظبوط حسب وصفه، سألته:

- إنت شايف اللي جاي إيه يا سيدنا؟

- اللي جاي الحصاد.. وكل من زرع هيحصد زرعته، ازرع جماجم تحصد موت، وازرع مر تحصد شوك أخلاق ومقسمها الخلاق.. مداااد...

- فأي الفريقين أحق بالأمن؟

- أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده.

- كلمني عن نجفة.. ليه نجفة بالذات؟

- حي.. مداااااد.. كلنا نجفة بس الفرصة مجتش.

كلنا عارٍ إلا من كساه الحق.. سابل الستر على عبيده كلنا في الامتحان.. والكل غلبان..

- النيزك جاي وهيسوي عاليها بواطيها.

خرجت منه ضحكة مخيفة، ثم أبرق بنظره للسماء قائلًا:

- كله بقى واطيها.. وعاليها هيسويها.. دا مش نيزك.. دا جناح الملاك واحنا من جهلنا شايفين حته منه فاكرينها نيزك صخري.

أصابتني قشعريرة من تخيل الأمر فقال مكملًا:

لما هيضرب الأرض بجناحه كل الناس دي هترتفع للسما فوق، وبعدها هيشيل جناحه من تحتنا ويسيبنا ننزل على جدور رقبتنا.. سألته في وجل:

- هو إحنا مفيناش حد صالح نترحم بوجوده؟

فقال بحالة بؤس:

-الصالحين الصامتين في المجتمع الفاسق كشهادة العاهرة التي تثبت خلوها من الأمراض، لكنها لا تردها عن طريق الرذيلة بل ترخص لها الفحشاء..

إنت فاكر إن العاهرة هي نجفة؟؟

لم أنطق بكلمة فأكمل:

- نجفة باعت لحمها بالرخيص علشان تاكل وتشرب ويمكن تكون محتاجة..

العاهرة الحقيقية هي المجتمع اللي دفعها لطريق الرذيلة ولم يحمي عرضها من ذئاب الوطن..

العاهرة الحقيقية هي ضمائرنا الخربة التي طالما باعت للناس وهم الصبر والتحمل..

العاهرة الحقيقة هي أموالنا في البنوك والمؤسسات..

العاهرة الحقيقية هي العدالة العمياء التي تُعاقب السارق المحتاج..

العاهرة الحقيقية هي تلك المحاكم التي أنشأناها في ضمائرنا الخربة لتفتش في نفوس الآخرين وقلوبهم وضمائرهم وتدينهم دون أي دليل إلا دليل الجهل..

ثم سألني فجأة عن اسمي، فأجبته "ناصر"

- يا ناصر.. ليُفتش كل منا في داخله عن العاهرة..

إن العاهرات اللاتي نراهن بأعيننا أهون بكثير من العاهرات الساكنات في نفوسنا.

كان الصمت يخيم على سقف الكلمات وأنا أردد في نفسي:

- "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر"..

قال الدرويش وكأنه يقرأني من داخلي:

- تبًا لكم يا بني أهل الوطن ترون الغبار في أعين الناس ولا ترون في أعينكم الحجر.. سألني:

- إنت خريج إيه؟ فأجبته طب..

ثم سألته بلطف وإنت يا سيدنا؟ فقال متبسمًا:

أنا في الأصل خريج كيمياء نووية جامعة القاهرة، رفعت حاجبي بحيرة فأدرك سؤالي.. واللي إنت فيه ده ليه وإمتى؟

فقال: بعد ما رجعت من بعثة ألمانيا.. زادت حالة الاستغراب عندي، فقال بهدوء:

ده كان قراري الأخير، وأنا عايز النيزك لما ييجي يلاقيني يا مولاي مالي غيرك..

النيزك ملوش مع اللي زيي صرفه.. النيزك للجبناء..

في نهاية كل طريق خاتمة الحساب، وبينما في أول الطريق تدفع ثمن الرحلة، فأنت في آخر الطريق تُحَاسَب على ما بدر منك طوال الرحلة.

[٩]
رجائي.. صاحب السادوس

كلمات الدرويش كانت درزًا من نوع فاخر، وأنا أريد أن أحفظها، ولذلك قررت أن أشتري "بلوكنوت" صغير أكتب فيه ما يعجبني من قوله، استأذنته أن أدون كلماته فوافق، وأشار إلى دكان صغير على الناصية القريبة منا،

وقال كلمة عجيبة لم أفهمها في حينها..

قال لي "روح ومتتأخرش.. وارجعلي زي ما روحت".

المحل صغير جدًا يقف فيه شاب في عشرينات العُمر، شعره أجعد ويصنع منه ضفيرة ديل حصان، بشرته خمرية، عيناه سوداوان لامعتان تفيضان نبوغًا، واسم المحل "لا"..

ألقيت عليه السلام فرد كرد أهل الجاهلية قائلًا:

- عمت صباحًا يا أبا الحكم.. ومعها ضحكة من قلب هُبل

ثم قال لي وأظنه يسخر إذ رأني قد أطلت في الجلوس مع الدرويش:

- ماذا تريد يا أخ العرب؟

رسمت على وجهي ابتسامة عفو وأجبته:

- من فضلك عايز بلوك نوت وقلم جاف..

أدرك ساعتها أن الهزل لا وقت له عندي، أعطاني ظهره لكي يأتيني بما أريد، سقطت عيني على لوحة معلقة على الحائط غريبة الشكل مكتوب في مركزها "الرب" وحولها في دوائر مكتوب كل من "العزير"، "المسيح"، "محمد"، "الحسين"، "بوزا"، "لينين"، ودائرة أخيرة فارغة.

إلتفت ليعطيني ما طلبت فوجدني غارقًا في اللوحة

سألته ما هذه؟

أخذ نفسًا من غليونه المليئ بالحشيش غالبًا -ذاك الذي سمعت عنه ولم أره- نفخ الدخان قريبًا من وجهي وقال:

- دا السادوس المقدس..

كان الدخان كما الكلمات جديد على عقلي، ولأني لا عهد لي بهذه الأشياء أخذت نفسًا عميقًا شعرت بعده بخدر في أطرافي وهدوء في حركتي، ورغبة في الضحك

واحمرت عيناي خجلًا من جهلي بالمخدرات..

أدرك هو ساعتها إني أتعاطى معه الحشيش بطريقة يسميها أهل العلم "التدخين السلبي" فأعطاني هذه المرة جرعة مكثفة من الدخان، فاستنشقت غبار الحشيش بكل سعادة، وسألته بما تبقى بعقلي من وعي:

- سادوس مقدس إيه بس!! هو مش كان ثالوث؟

- هو في النهاية خيال، لكن بأطعمة مختلفة.

أدرت رأسي لأتعاطى هواءً خاليًا من الحشيش حتى أستطيع أن أكمل الحوار واقفًا، سألته عما يقصد، فقال:

- حط الرب في النص وخد سهم وحط واحد من دول تلاقي إنك بقيت صاحب دين، يعني..

الرب + العزير = يهود

الرب + المسيح = النصارى وهكذا...

سألته عن الخانة الخاوية فرد ساخرًا:

- دي إحنا..

- أنتم مين؟

- إحنا اللي ملناش في الليلة دي، قلت له تقصد الملحدين؟

- الله ينور عليك..

ضحكت باستخدام ما كان في جسمي من الحشيش وقلت:

- إنت قلت الله ينور عليك! طب إزاي؟ إنت مش لسه قايل إحنا مش من دول؟!

ضحك بكل توهان الحشيش الذي شربه طوال عمره وهو يقول:

- دي لازمة لسان مش أكتر..

كان الدرويش قد وصل، نظر في عيناي الحمراوين وقال:

- واضح إنك مش إنت.. ثم نظر إلى الشاب وقال:

- عمت صباحًا يا رجائي.. ليرد عليه:

- عمت صباحًا يا أبا جهل.

أغضبني الوصف فأفقت، وكدت أنهر هذا الرجائي المُختل إلا أن الدرويش ضغط على كتفي، نظرت إلى رجائي وسألته سؤالي للدرويش:

- أي الفريقين أحق بالأمن؟ فقال في سخط:

- اللي في إيده السلاح..

كانت ضحكتي عالية لدرجة أن سمعتها نجفة حيث تقف، فجاءت مسرعة ومعها زجاجة ماء وفنجان من القهوة المُركزة، كنت على وشك السقوط على الأرض، قالت نجفة:

- اغسل وشك يا أوستاذ، وخدلك شويه قهوة وسيبها على لسانك، فعلت ما قالت، وأخذت قرصًا من علاجي الخاص بضربات القلب، لتهاجمني رغبة في القيء، لم أتمالك نفسي من شدة الدوار، فجلست على الأرض أتقيأ، جاءت نجفة بجردل كان بجوار الحائط وضعت فيه رأسي، ثم أخذت نفسًا عميقًا من هواء آخر أقل إثمًا، سمعت نجفة تقول:

- الله يجازي ولاد الحرام.. إنت إيه اللي جابك هنا يا أوستاذ!! دا لا مكانك ولا مقامك..

وقفت على قدمي لأسمع الدرويش يقول لرجائي:

- عايزك تفضل عند رأيك واحنا فوق الجناح.. عايزك تفضل ناكر لحد ما ييجى القدر.. عايزك تفضل راجل وقد كلمتك.. على العموم مفاضلش كتير والنيزك يكتب التفاصيل..

أسندني الدرويش من جانبي الأيمن، ونجفة من جانبي الأيسر، تضع زراعي على كتفها، تكاد ترفعني عن الأرض رفعًا، كنت غير كامل الوعى وغير غائب، أسمع صوت أنفاسها على رقبتي وهي تقول للدرويش:

- قلبه بيدق يا سيدنا جامد، الجدع هيروح في شربة ميه.. كانت تحتضنني في استهبال يفهمه الدرويش

ثم قالت:

- ما نطلعه عندنا فوق شوية على ما يفوق ونطمن عليه! رد الدرويش:

- حطيه على الأرض يا نجفة، سيبي القطط والكلاب تدوسه وتبوسه، حطيه من إيدك.

وبصوت غاضب لا مهادنة فيه قال لها:

- حطيه علشان تفوقي يا نجفة..

-

إننا دائمًا ما نكتب أحلامنا وأوهامنا وخطايانا أيضًا على رؤوس الناس، بل ونتهمهم بما في أنفسنا نحن..

[١٠]
غبار النيزك

صوت انفجار ضخم يهز المكان وموجة تراب تحجب الرؤية، صرخات تخرج من كل مكان وهرج ما بعده انضباط، والكلٌ يبكي على ما لا يعرف.. كان الصوت مخيفًا جدًا..

قبلها بلحظات كان رجل سمين يشبه السوفيت يحمل في يدية زجاجتي خمر -من نوع لا أعرفه ولا أعرف غيره- يرفعهما لرجائي ليخبره أن طلبه موجود..

بدأ الصوت في هذه اللحظة فسقطت الزجاجتان على الأرض ليسيل مع السقوط ما فيهما، وفجأة يخترق صدر الرجل السمين حجر يأتيه من خلفه ليخلع قلبه من مكانه ويحدث فجوة كنت أرى من خلالها ما خلف الرجل..

إنها لحظة أعنف من الموت، قلب الرجل لم يسقط على الأرض بل سقط بين يديه، وغشاء تامور قلبه مشتعل حقًا، يسيل من الدهون المحيطة بالقلب زيت المعصية و الشهوة، الرجل ما

زال واقفًا يحمل قلبه وهو يحترق، وحافة الفتحة التي تكونت في صدره مشتعلة..

كانت عيناه تذرفان الندم والوجع والخوف، حاول أن يفتح فمه فنزل منه آخر قطرات دم حي تسكنه..

لم أكن قادرًا على فعل أي شيء، ولا حتى تذكيره بربه، كان المشهد أصعب من أن يترك للعقل فسحة من نعيم، لم أملك إلا أن أقول في نفسي..

أشهد ألا إله إلا الله.. وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله..

سمعت الدرويش يصرخ قائلًا:

حي.. هو الحي..

كانت عينا الرجل تنظران لقلبه وهو يحترق بين يديه بذعر يستحيل أن يُنسى، امتد المشهد لما يقارب الدقيقة ليسقط الرجل على ركبتيه وقد استدبر القبلة لتصيبه شظية أخرى، تحفر له قبره تدفنه فيه نصف حي والنيران قد أمسكت بنصفه السفلي..

إنه أحد القلائل الذين حضروا موت أنفسهم كاملًا، بل ربما يكون الأول الذي حضر دفن جثته ومازال به بقية من حياة..

نبهني الدرويش أن هذا ليس وقت بكاء، قائلًا لي:

- دا يومك يا سيدنا.. فهمت من كلمة الدرويش أنه يقصد إني طبيب وجراح وهذا يوم عمل لا يوم مشاهدة..

انطلقت ومعي الدرويش وبعض الناس إلى صيدلية في مواجهة المسجد وأخبرته أن يجهز أدوات الإسعافات الأولية..

وصوت آخر أكثر من الأول وجعًا يصم الآذان، ضربت الواجهة الأمامية للمسجد، سقط معها معظم جدار المسجد، وسقطت المئذنة من علٍ، ليعلو صوت الدرويش مرة أخرى فزعًا..

حي.. هو الحي..

كنت أريد أن أنشئ مستشفًا ميدانيًا كذلك الذي كان في أيام الثورة العظيمة، لكنني لم أر حتى الآن مُصابًا حي..

إن كل الذين أُصيبوا دفنهم القدر مباشرة برصاصة الرحمة الثانية، وإن المتفرجين كلهم ليس فيهم مصاب إن البيوت التي سقطت كانت خالية من أهلها، حتى واجهة المسجد ومئذنته سقطت حيث لا حياة..

إننا لسنا في حرب مع عدو ولكننا تحت سيف عقاب القدر..

انقطع البث عبر كل شيء لما يقارب الساعة، لقد عدنا في لحظة واحدة ألف عام للوراء، كانت السماء قد اختفت عن ناظرنا

وأصبح الهواء غير ذلك الذي كنا نتنفسه، إن شعورًا بالاختناق هو لحظة من طلوع الروح وجزء من ألم الاحتضار.

عاد الإرسال بعد فترة حاولنا خلالها أن نتبين الحدث، طلبت من صاحب المقهى أن يفتح التلفاز وإذا بقناة تخبرنا أن "السيد فلان" قام بافتتاح محطة ضخ أكسجين لمنطقة القلعة والسيدة زينب وقام سيادته أيضًا بافتتاح...

علا صوتي على صوت التلفاز وأنا أصيح في صاحب المقهى:

- أبوس إيدك هات قناة تقول لنا اللي احنا فيه..

غير القناة إلى محطة أجنبية صادقة فقالت المذيعة المتأنقة رغم فداحة الحدث:

- إن موجة من الغبار الشمسي ضربت بقاعًا متفرقة من الأرض مما تسبب في حالات موت لحظي مؤكدة..

غبااار!!

نعم إن الهول الذي حدث هو مجرد موجة غبار تسبق وصول النيزك، وإننا مرشحون لعدد من موجات الغبار قبل أن يصل النيزك بنفسه..

واستطردت أن الأعداد المرشحة للموت بغبار النيزك ما يقرب من ستين ألف في كل موجة غبار، بينما المرشحون للموت بالنيزك في ساعته الأولى هم مليون في كل كيلو متر مربع..

وأن كل المياة والحياة الموجودة في حيز سقوط النيزك مؤكد تبخرها بالكامل، والهواء الموجود مرشح للتلاشي خلال سبع ليالٍ وثمانية أيام حسومًا.

إن الذي حدث لم يكن أكثر من تأثير الهواء القادم من سرعة انطلاق النيزك نحو الأرض المقصودة..

إن الأمر الآن أكبر من كل قدرات البشر، إنها المواجهة الحقة مع القدر..

أفقت على صوت الدرويش وهو يربت على كتفي ويقول:

- من اجل ذلك كتبنا...

عندما تنتهي موجات النصح والعتاب، تكون موجات العقاب أكثر قسوة، وأقل وقتًا، ولا راد معها لقضاء الله.

[١١]
عايزة أتوب!

لم يعد أي شيء كما كان.. كل شيئ تغير حقًا..

إلا البشر..

لم تعد السماء صافية كما الأمس، ولم يعد الهواء نقيًا كما كان، ولم يعد طعم أي شيء لصورته الأولى، رائحة الموت كانت تملأ الشوارع وتصبغ الهواء بنسائم جهنم حيث رائحة أجساد البشر المحترقة.

انقطعت الشكوى من على ألسن الناس، إلا أنهم لم يتوبوا، كانت صفحة القدر تعرض عليهم سوء حالهم وشر مآلهم وهم عاجزون..

عاجزون عن الصلاح أو الإصلاح..

عاجزون عن رد العذاب أو الاستعذاب..

وعاجزون حتى عن الاعتراف بما قدمته أيديهم..

كنت في هذه اللحظات أمسك في ذراع الدرويش أطوف به في الطرقات علني أجد مصابًا أنجح في علاجه أو حتى ألقنه الشهادة..

كانت هناك حالة يصعب توصيفها.. ربما صدمة أصابت القوم، لكن سرعان ما أنكرت نفوسهم الهشة حقيقة ما يجري.

كان رجائي يراها ميتافيزيقا النيازك..

وشيخ الجامع يراها عقاب القدر..

و الضابط يراها كوارث مجتمعية..

و الدرويش يراها الحصاد المر..

وكنت أراها كل هذا مُجتمعًا..

إن كل شيء سيستوي بالأرض هكذا قال الدرويش، سمعته نجفة تلك التي التصقت بنا منذ أول صرخة لمولد النيزك، كانت تنظرني بشغف يقلقني، سألت الدرويش:

يعني إيه كله هيتساوى يا سيدنا؟!

قال لها:

- خلااص راجعين للماضي، زي يوم ما نزلنا الأرض من مليون سنة، لا غفير ولا وزير، لا مريض ولا سليم، ولا غني ولا فقير، سكينة القدر هتقطع اللي فوق خط الصح.. كلنا هنبقى تحت..

كانت هذه الكلمات لنجفة هي الشهادة التي حلمت بها طول عمرها.. شهادة الاستواء، كلنا ولاد تسعة، ومحدش أحسن من حد، واللي أصله من طين ميعملش فيها ابن عجين..

اقتربت مني نجفة اقترابًا يقطر وحلًا من سباخ البرك وقالت:

- وحياة عنيك اللي علموني التوبة يا مز المزاميز ما تقول لا..

كنت أريد أن أقول بكل قوة "لا" ، لكنني سألتها قصدك إيه؟! قالت في حلم من تأكد أن الحلم حقيقة:

- متيجي نشهد الخلق دي وازغرطلك زغروتين وابقى حتتك وملكك يا غالي.

كدت أضحك وأبكي مجتمعين، لكنني تسمرت وقد أحاطتني بزراعيها في زاوية حائط يصعب الهروب معه، ثم قالت:

خلاص كل اللي فات ماات.. وأنا من ساعة ما شفتك وإنت داير في فُلك عقلي ومجنني، إنت فكيت صواميلي كلها وإنت ولا حاسس.. وحياة أبو عمة خضرا

وأبو سما زرقا، إنت ساكن هنا -وأشارت إلى قلبها- من ساعة ما نور عنيك نور طاقة قلبي المضلمة.

قول آاااه وملكش دعوة بالباقي.. وحياة الكهربا اللي طالعة من عنيك ولا كهربة السد العالي لأكون تحت رجليك جارية وتبقى سيدي وتاج راسي..

ياكش أعيش في حضنك لحظة حتى لو فوق النيزك..

قول اه يا ابن الناس وبطل مقاوحة، دا إنت عنيك بتقول اللي عمري ما سمعته.. طيب عليا الطلاق منك ودا أغلى يمين في عمري، لو كنت من نصيبي لأعملك شيخي وأتوب على إيدك، ولو العمر طال لاخدك ونحج إياكش في رمضان اللي جاي.

نظرتُ في الأرض عابثًا مستغربًا، ثم رفعت رأسي لها ونظرت في عينيها وقلت لها:

- يا نجفة مفاضلش عمر ولا يحزنون!! قالت مع تنهيدة كسرت عظم ضلوعها:

- الله على حلاوة اسمي وهو طالع من شفايفك!! النبي تقوله تاني.. يخرب بيت الملبن اللي أمك إتوحمت عليه في حملك.. يا خرابي هو فيه كده يا بشر!! الواد ده حلو سابق سِنه..

صرخ الدرويش بصوت مخيف أوقف كل عبثها:

كل نفس ذائقة الموت.. كل من عليها فان..

هو الله..

كنت ساعتها أبكي، أفاقت نجفة على صرخات الدرويش وصوت بكائي، فإذا بها تذرف دموعًا لا تفسير لها، وتنتحب نحيبًا لا هدوء معه وتخرج من عباءة جنونها لتقول:

- عايزة أتوب..

وبينما الرجل الصالح والنبي الكلمة -في الرواية الإنجيلية- يُكفر عن كل الخطايا البشرية على الصليب، إذ يرى عن يمينه لص - يشاركه مصيره- يسأله من أنت؟ وما جريمتك؟ فيخبره أنه نبي الله.. فيُسلم قبل الموت بقليل.

وبينما يوسف في السجن ظُلمًا، لم يمنعه سجنه أن يُذَكِر عباد الله بربهم، ويمضي الزمن ويتذكر الذي نجا منهما ليقول "يوسف أيها الصديق أفتنا".

[١٢]
فرجك يا رب!

كنت أنتظر أن أرى عيون الناس وقد أفاقت من غيبوبة الدنيا، ولبست ثياب الطهر أو التطهر، واستعدت للخروج الآمن من الإمتحان.. لكن شيئًا لم يتغير.. إن الاختبارات العظمى ليست إعادة صناعة نفوس سوية لكنها اختبار درجة النقاء..

فأما الذهب فيزيد بريقًا، وأما الزبد فيذهب جفاءً..

إن النار تحرق الخشب وتصهر النحاس وترفع قيمة الذهب.. هكذا كل اختبار، كنت أنتظر أن أسمع جديدًا يحمل فرصة نجاة لأحد لكن لا شيء تغير كثيرًا..

أمسكت في يد الدرويش ومن وراءنا نجفة بعد أن بدلت ثيابها ولبست ما يظن الناس به بها خيرًا، وسترت ما كانت تتركه في العراء مخافة اللحظة الحالية، أو حلمًا بلحظة أخرى ربما يجود بها القدر أو حتى الضعف البشري..

أمام واجهة المسجد حفرة عميقة صنعها الغبار السابق للنيزك، وأصبح المسجد مفتوحًا على الشارع إن القرار الملصق

على كل ركن من أركان المسجد والذي تأمر فيه الأوقاف بإغلاق المسجد إلا في وقت الصلوات فقط أصبح غير قابل للتنفيذ..

الناس يجتمعون أمام المسجد وكلهم أمل أن يكون بيت الله هو الموطن الآمن لهم كالكعبة المقدسة يوم الفتح الأعظم.

ضابط الشرطة كان قلقًا وجلًا.. رأيته يحدث زوجته عبر الهاتف قبل انقطاع كل شيء يسألها عن ابنه "ياسين" كان يبكي وهو يحدثها ويقول في وجع:

- يعني حرارته منزلتش؟!

ثم يقول لا حول ولا قوة إلا بالله، طيب إعملي له كمادات، اقتربت منه وأخبرته أنني طبيب، تحول الرجل فجأة من ضابط إلى أب، احتضنني وقال بصوت يغلبه الدمع:

- فرجك يا رب!! والنبي دا الولد اللي حيلتي، صبرت العمر علشان أربيه مليش غيره الله ينجيك..

أمسكت الهاتف وكلمت زوجته، سألتها بعض الأسئلة عن الطفل فاطمأننت إلى حالته، سألتها عن توفر بعض الأدوية في منزلها، فردت بالإيجاب، فقلت يا فرج الله

كانت عينا الضابط تسيلان وجعًا وخوفًا وطمعًا، أخبرت السيدة زوجته بما تفعل، وقلت لها سنطمئن عليه بعد ساعة..

طمأنته أن حالة ولده لا خطورة فيها بإذن الله، وشرحت له في بساطة ما يعاني منه ولده وأن الأمر سيحتاج بعض الوقت لكن لا خطورة فيه البته.

احتضنني الضابط بشدة وبكى على كتفي كأنه طفل وقال أنا مش عارف إيه اللي حصل لنا؟

إحنا كنا أحسن من كده بكتير..

إحنا إيه اللي لخبط ورقنا كده؟!

كنت أراه يخلع ذنوبه ويركب قارب النجاة والتوبة، قلت له بهدوء:

- هي اختبارات وربنا قادر أن يساعدنا على اجتيازها.

كان الموقف غريبًا ومخيفًا وعبثيًا، كأن الجميع ينتظر مخلصًا يرده إلى صورته الأولى، إلى أيام براءته وطهره وبساطته، كانت اللحظة حاسمة ودقات الوقت تشير إلى اقتراب الخلاص..

خلاص ممزوج بنيران الطُهر والفناء..

خلاص ما بعده منكر ولا معروف..

كانت الوجوه مغبرة بتراب الفشل والعيون مليئة بدموع الخوف والندم، وكان الناس على أصناف ثلاثة..

مؤمن لم يزده الأمر إلا نقاءً..

وظالم لم يزده الأمر إلا خوفًا وشقاءً..

وبينهما جهال لا معالم لهم، أإلى الحق سائرين أم إلى النيزك قادمين، رعاع لا وزن لهم إذا حط النيزك الأمين إلا أن يكونوا مع القوم الظالمين.

عند محطة الوصول يكون الناس ثلاثة..

ناجٍ ومخدوش ومكردس..

هذا هو حالهم عند الصراط المنصوب فوق جهنم..

[١٣]
هندمر النيزك

إن أرضًا تموت وحدها دون حول ولا قوة ولا نخوة ولا رجولة في مواجهة البغي لجدير بموتها أن تُكتب اللعنة على كل الذين حضروا المشهد ولم يتمعر لهم وجه، ولم ينطق لهم لسان، ولم تطلق من أرضهم رصاصة شرف..

يسقط كل الخائنين والخانعين ومعهم الركع السجود الذين كتبوا فصولًا من الخنوع عندما تكلموا لنا من فوق المنابر عن الحق المنقوص، والعدل المبتور، والحكمة المُذلة.

إن أرضًا لا تعرف النخوة ولا الأخوة لمستحِقة حقًا للنيزك الأعظم..

كان الليل الذي أرخى سدوله الطويلة لم ينقطع بعد، والصباح الذي طال انتظاره قد انقلبت به سيارة شركة الصباح المتحدة عند مدخل قليوب ولم يعد ممكنًا وصوله نظرًا لصعوبة الوضع.

الغبار سيد الموقف، والضباب والضياع.. والصياح والنباح، وصوت الذئاب ونواح أو نباح الثكالى.. وقطرات الماء الملوثة بذنوب الجميع تصنع خلفية صورة بائسة عند مدخل المكان المدعي الطُهر، حيث لا طُهر خارج أي نفس حضرت المشهد..

كان أطهرنا صامتًا، والأقل منه طُهرًا ملتفتًا وكثير منا مشاركون بالإثم دونما فائدة تُذكر أو فضل يُنكر أو وجع يمنع الرذيلة من التفشي.

أصوات الصراخ تأتي من كل مكان لتجتمع عند ميدان التحرير، وتتقدم من منطقة الحسين حيث أول ظهور للنيزك المرتقب.

موجات الصوت تلتف وتلتحم وتلتئم وتصنع موجات ضياع لا آخر له، ونوبات هَم لا سقف له، كل هذا يتوحد حيث لا فهم ولا فضل ولا معصية متروكة ولا منكر أنكرناه.. إنَّ هؤلاء قوم مجرمون.

لقد كانت اللحظة بلغة أهل الدنيا النجباء لحظة موغلة في شرفها عند من لا يعرفون معنى الشرف، ولا النبل ولا حتى القيمة.. قيمة أي شيء، وكل شيء..

إنها لحظة الارتداد العظمى حيث يشير مؤشر الشر أنه بلغ ذروته، ويشير مؤشر الخير أنه بلغ في هبوطه القاع، وأن انفجار مواسير المجاري قد اختلطت بمواسير المياة، فالكل في تعاطي وشرب البول سواء..

إنها لحظة الحكم الصادر من المحكمة العليا حيث لا راد لقضاء الله وقدره.. وحيث تعسًا للقوم الظالمين.

كان أزيز الطائرات يملأ سماء المكان، البعض يقول أنَّ فريقًا من العلماء قرر النزول فوق ظهر النيزك ليدمره كما فعل الأمريكان في أفلامهم..

وانتشرت إشاعة كبيرة عنوانها "هندمر النيزك"..

بينما آخرون يقولون أنها طائرات العدو تدك أرض العِزة غزة، وكان الناس على حالة من الفوضى لا حدود لها، بعض محطات الراديو والتلفاز مازالت تعمل؛ لكن كل المعلومات متضاربة..

ظهر رجل غريب كبير في السن كما هو كبير في علوم الجهل المختلفة، عندما سألت عن اسمه قالوا الأستاذ خليفة.. رجل سبعيني بصحة جيدة، كان فى الاتحاد الاشتراكي أيام عبد الناصر، وفي أيام السادات من الإخوان المسلمين، وفي أيام مبارك من

الحزب الوطني، لتأتي أيام الثورة الجديدة وهو مدافع عن أي نظام باستماته..

كأن أُمُه أرضعته من ثدي أم بكري وأم موسى، بل وأرضعته رضاع الكبير من بنت الخياط نفسها، صورة مُثلى للرجل المدافع عن أي شيء يمس أسياده

حتى لو أدخلوه هو شخصيًا المعتقل.. وقد دخله فعلًا أيام عبد الناصر، لكنه صاحب الكلمة الشهيرة "احتياجات مرحلة".

تكلم الرجل بكل ثقة قائلًا:

أنا عرفت من صديق في جهة سيادية إن مفيش نيزك أساسًا.. احنا بنصنع القنبلة النووية.. ودا نوع من أنواع الغبار النووي السلمي اللي مش مضر نهائي لأي حد،

وما حدث نتيجة أن بعض التجارب كان لازم تتجرب داخل المناطق السكنية حتى لا يعرف العدو بخططنا المستقبلية..

إنتم بس لو تبطلوا كلام في اللي تعرفوه واللي متعرفهوش!! والله كان حال البلد دي إنصلح وبقينا زي الفل.. لكن كل واحد في البلد دي بيفتي..

هكذا كان يتكلم أو يهذي هذا الرجل..

كان كلام الرجل وحدة إشارة مؤكدة لسائقي النيزك أنه لا امل مطلقًا في مِثل هؤلاء، حتى أن سائق النيزك قال للسائق المساعد "أسرع شوية علشان أنا مش مستعد أسمع أكتر من كده"..

أنا سواق نيازك قديم وشُفت كتير وقليل، وسُقت نيازك ياما لكن ناس بالشكل ده.. أنا مشفتش!!

إن الحصاد دائمًا ملخص تجربة زراعة واضحة، وكل الناس تعرف ما ستجني، ناهيك عما يقولونه في مجالس اللهو أو الأُنس، أو ما يقولونه خلف خطيب الجمعة.. كلهم يعلم أن " كل نفس بما كسبت رهينة".

[١٤]
فوق النيزك..

القوم مستسلمون تمامًا، يشترون الطعام بنهم ويستعدون لتخزينه في أيام انتظار النيزك، حاولت جاهدًا أن أشرح لهم الأمر، لكنهم كانوا غير مدركين لخطورته.

كنت أسمع صوت الشيخ يتردد من مكبرات المسجد يقرأ قوله تعالى..

{قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَـٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ "23" فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ "24" تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ"25".

كانت الساعات تسير ببطء مخيف، فالانتظار أكثر قسوة من النيزك المؤكد، كنت ساعتها أكتب في المذكرة التي اشتريتها، أكتب وصيتي..

لم أكن أعلم هل سيقرؤها أحد يومًا؟

هل ستحترق مع الدمار القادم؟

هل سيعطيني العمر وقتًا لكتابتها؟

لكنني كنت أقول لنفسي إنها شهادتي أمام الله في اللحظات الاخيرة..

كتبت فيها أني أشهد ألا إله إلا الله وحده.. وأن محمدًا عبده ورسوله، وأني أشهد أن الموت حق، وأن الحساب حق، وأن الجنة والنار حق..

كتبت فيها الى الله معذرة على تقصير لم أستطع دفعه بيدي ولم يسعف قولي دفعه، وأني قادمٌ الى الله بقلب لم يرض بالظلم يومًا.. ولم ينصر ظالمًا.. ولم يترك ضعيفًا جاءت به الأقدار حيث مقدرتي..

كتبت أننا يا رب عبادك الضعفاء، وأنت ربنا القوي.. وأننا قادمون إليكَ مُحَمَلُون بالذنوب والخطايا، وظننا بك يا عفو المغفرة والعفو..

كنت أبكي أن العمر مضى دونما شيء أذكره في كتابي حين أُسأل عن عمري فيما أفنيته؟.. وعن شبابي فيما أبليته؟..

وعن مالي من أين اكتسبته وفيم أنفقته؟

كنت أبكي بكاء الحائر التائة الذي لم يعد له في ظلمات الدنيا نور، كنت أشعر جيدًا أنه لا عفو بغير رحمته، ولا قدرة أمام قدرته.

يبدو أن صوت نحيبي أسمع نجفة والدرويش، قالت نجفة وهي تربت على كتفي:

- إذا كنت إنت بتعيط كده.. أومال اللي زيي يعمل إيه؟! دا أنا كنت مقضياها شرق وغرب.. والله ما عارفه أقابل ربنا بأي وش..

تبادل معي الدرويش نظرة يقول فيها "قم وذكر الناس بربهم"، مسحت دمع عيني بسرعة وقلت لنجفة:

- ربنا غفور رحيم وإنتي قلتي يا توبة..

{ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}

كنت أقرأ الآيات لنفسي لأُثبتها.. كنت أخوف منها فهي تابت حين عرفت القليل.. أما أنا.. فهل تبت وأنا أعرف الكثير!!

إن الدنيا حقًا دار فتنة لا حدود لها.. هنا قال الدرويش: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}

ثم نظر إلى السماء قائلًا:

سنأتيك بك فلا تردنا وقد جئنا بك.. فإنا ضيوفك وأنت الكريم..

صوت مخيف يكسر كل صوت ويصم كل أُذن، وغبار يُعمي الأبصار، وضوء لهب عظيم يظهر في الأُفق القريب، وليل يتحول فجأة إلى نهار مخيف، وهزات سقوط بعض المنازل الآيلة للسقوط..

بكاء وصراخ وعويل، وعيون قد أماتها الخوف في محاجرها، وألسن لم تنطق بكلمة من الخوف، وألف ألف دمعة عالقة فى عيون القوم..

أسنان ابتسامة عجوز وقد استبشر بالرحيل، وشبع ألف ألف بطن كانت جائعة منذ قليل..

رجل أمن يخرج سلاحه حين سمع الصوت ثم يرميه أرضًا حين يرى القادم..

ونساء تركن ملابسهن ونزلن كما ولدن ولم ينظر لهن أحد..

ورجل صائغ يحمل كومة ذهب يحتضنها خوفًا أن تضيع..

لم نعد نسمع أي صوت.. ولا نرى أي شيء..
إن عظيم نور النيزك قد ذهب بأبصار الذين نظروا إليه..
ولم يعد على لسان القوم إلا كلمة "الله".
إن الارتطام العظيم يحدث الآن..
إن النيزك يضرب الأرض في مكان بعيد عنا قليلًا، قطعة من قشرة الأرض سُمكها لا يقل عن ثلاثة أمتار بمساحة لا نرى آخرها قد انتُزعت من الأرض.. ومساحة ضخمة من المكان قد حَملها النيزك..

إن جناح مَلَكٌ عظيم قد حمل كل هذه الأرض وطار بها وبمن فوقها في السماء الدنيا..
لم ندرك ما يحدث في لحظة الارتطام.. لكننا الآن نُدرك أن ألف ألف من هؤلاء البشر محمولون فوق قشرة أرضية طائرة.. أننا صاعدون إلى السماء ونحن أحياء.. أو أننا سنسقط من ارتفاع ألف ألف متر في الهواء وتنكسر أعناقنا جميعًا.. إننا الآن.. والآن فقط قد أدركنا جميعًا أننا "فوق النيزك".

[١٥]
لحظات الخوف العظمى

ها نحن الآن بين السماء والأرض، ان ارتطامًا عظيمًا قد حدث، وله عواقب لابد وأن تحدث، وأن سقوطًا مدويًا سيكون الجزء الأخير من سلسلة الانشطار العظيم..

كان الجزء المُنشطر من الأرض قد انطلق في اتجاه الأقدار في عكس اتجاه دوران الأرض الأصلي، ويبدو أنه توقف عن الدوران لفترة كنا جميعًا نشعر فيها برغبة في القيء الشديد..

كان الهواء له طعم آخر ورائحة أخرى، هواء معجون بالخوف ومغسول ببعض الندم، كان الصمت في الساعات الأولى هو اللغة الرسمية للحوار..

الليلة الأولى في الانشطار العظيم كانت طويلة جدًا، وشمس الغد لم تأت بعد.. كانت أوزاننا غير تلك التي نعرفها.. كنا أخف وزنًا و مخاوفنا أكثر ثقلًا..

كنا ننتظر بزوغ الشمس لكن الليل كان له رأي آخر، كل ما صنعه البشر في ألف عام قد اختل الآن، كل اختراعاتنا أصبحت ألعابًا في أيدينا..

إن الناموس الكوني تغير كثيرًا، لم يعد هناك مقياس للوقت إلا ساعة زنبركية كنت أحتفظ بها ومازلت، لكن الغريب أن عقاربها كانت تدور عكس ما كانت..

ولما بدا نور من السماء يظهر قادمًا من المغرب لا من المشرق، إن كل شيء يدور الآن عكس ما كان.. نعم إن الشمس قد خرجت من مغربها..

إنها اللحظة الأولى بالاعتراف، إن أملًا لم يعد موجودًا لمن لم يُكتب اسمه من قبل في سجل المؤمنين.. قال الدرويش صارخًا: يا الله عفوك سبق غضبك..

ظهر رجائي ذلك الرجل العاهرة، كان كمن قُبض عليه في بيت مناف للآداب لكنه مازال مصرًا على حريته الشخصية، قال بصوت مهجن بين السحالي وقصاصي الأثر:

- ربنا رب قلوب وهو أعلم بكل واحد فينا..

كان رد الدرويش غريبًا فقد قال له "استرجل"، تذكرت ساعتها

كلمة الدرويش قبل التنيزك لما قال له:

- أنا عايزك تفضل راجل كده وعند كلمتك لما نبقى فوق الجناح.. نحن الآن بلغة الدرويش فوق جناح الملاك..

كان الوضع عبثيًا من رؤيتنا، وإن ما نحن فيه لا طاقة لأحد بمجابهته.

كان الظابط في حالة ذهول حقيقية، لحظة اضطراب مؤكدة، خوف لا يعرف معه أين باب الرجاء، أمل أن يكون هناك أمل في النجاة.

كان قد ألقى سلاحه في أول الأمر لكنه عاد فحمله بل وراودته نفسه أنه سيكون الحاكم بقوة سلاحه إذا كان هناك أمل في النجاة، كان الرجل صورة حقيقية لمن يملك حلمًا وأملًا ورغبة، ونفس لها فجورها وأُخرى لها تقواها..

كانت تصرفاته تقول ذلك.. لو كانت الآخرة يبقى يا ريت لو نتوب وندخل الجنة، ولو كانت لسه دنيا يبقى يا سلام لو بقيت في منصب أكبر.. إن الرجل قضى حياته خادمًا للوطن -نعم هو يقول ذلك- وحقٌ على الوطن أن يرد له الجميل..

كان رجائى قد استعاد بعض من رجولته فقال:

الوطن أعطى الجميع.. محدش أعطى الوطن.. الكل أخد وأنت أولهم.. الكل خدم وخد أُجرته أو سميها مرتبه، بل بالعكس.. فيه ناس جنب المرتب أخدت جاه وسلطة وأمان ومنصب..

رد عليه الضابط بغضب:

لولانا كان زمان..... لم يعطه رجائي الفرصة فقال له لولاكم؟!

يعنى الراجل ده -وأشار إليّ- يقدر يقول لولانا كان زمانكم مُتم من المرض؟!

إحنا كلنا موظفين عند الوطن ده وبناخد أجر، ومفيش حد الوطن أعطاه حق الكلام باسمه.. احنا كلنا أبناء الوطن، أو خدامين الوطن..

كلنا بدرجات متفاوتة

أكلنا من خيره فمحدش يتكلم بلسان الوطن..

الوطن مش أخرس.. ولا بعيد عن اللي بيحصل..

كان اليوم الأول في العام الأول من حدوث النيزك

بداية التقويم النيزكي الجديد..

لقد كانت آخر أعوامنا على الأرض القديمة ٢٠٢٠..
كانت ليلة جمعة في ١٣ شوال لعام ١٤٤١..
كان موافقًا ليوم ٥ يونيو ٢٠٢٠..
نحن الآن في لحظات الخوف العظمى..

[١٦]
البداية الجديدة

الضوء المظلم.. كل شيء الآن قابل للانصهار، حتى نحن.. إن ضوءًا في الأفق كنا نظنه نور فجر يوم جديد فإذا به طاقة لا قِبل لأحد بها تصهر كل شيء بأمر ربها..

إن الذين عاشوا على حافة الحياة، وحافة المعرفة، وحافة الجهل، لحري بهم أن يذوبوا كما يذوب الملح في الماء ولا يبقى من أثرهم طعم يُذكر ولا لون يُنظر ولا كلمة يرددها بنو البشر..

إن سحابة من ضوءٍ مُظلم تملأ الأفق هناك، الذين يدخلونها إنما يعبرون للجانب الآخر من الحقيقة حيث لا كذب ولا قدرة عليه.. حيث لا اختبارات ولا رسوب..

إننا الأن جميعًا في لحظة الانفصال العظمى..

إن النيزك لن يسقط كما كنت أظن، ولن نهوى على أعناقنا لتكسرها صخور الأرض، إننا سنتلاشى جميعًا ولن يبق منا ما يسقط على الأرض القديمة، إننا سنتحول إلى ذرات خفيفة لا قيمة لها..

إنني الآن أراني أهوى تمامًا.. ومثلي الدرويش.. والظابط.. نجفة.. ورجائي..
إننا الآن سنعبر من الجسد الطيني إلى راحة أبدية أُخرى، أو ربما عذاب سرمدي أبدي.. إننا الآن نذوب فعلًا فوق هذا الذي كنا نظنه نيزكًا، لا شيء مما كنا نتمسك به باق.. كل شيء سيهوى إلى اللاشيء..

إننا كنا في غفلة الوجود المستتر، وها نحن نعبر إلى الوجود الحقيقي، إنني أشعر براحة غريبة بعد أن تحررت من هذا الجسد الطيني، إنني أطير الآن في الملكوت دون حدود.. دون ضغوط.. دون خوف والجميع مثلي يفعلون..

إن اللحظة التي ظننت أنها لحظة الفناء كانت في الحقيقة لحظة الولادة.. إن كل مخاوفي قد زالت تمامًا حين رأيت جسدي من علٍ وكيف أنه تلاشى بالكلية..
لحظة تفكك القطعة الأرضية من تحت أرجلنا كانت لحظة صعبة الوصف، لكنني كنت وكأنني أطير من فوقي.. كنت أراني

جيدًا، بل كنت أطير خلف جسدي وهو يهوي في الفضاء السحيق..

كنت غير قادر على منعي من الاندثار.. لكنني ولدت حقًا يوم تلاشيت صدقًا..

إن الحالة الجديدة من الميلاد غريبة جدًا.. إنني أرى من كنت أحبهم..

هذا أبي..

وهذه أمي..

هذه زوجتي..

وهؤلاء أصحابي..

إنني الآن في عالم آخر..

لقد ولدنا جميعًا مرة أخرى

أو إن صح القول.. لقد رجعنا جميعًا لأرضنا الأخرى..

إنني الآن أُقيم على سلم الزمن حيث لا جسد طيني،

ولا جوع ولا عري ولا ألم..

يبدو أنها الجنة أو شيء آخر..

الجميع ها هنا موجودون، كل شيئ قائم هنا..

الألوان هنا غريبة إنها ألوان كتلك التي سمعنا عنها من أنها أطياف العرش..

أين نحن الآن؟

إنها البداية الجديدة.. حيث لا حيث..

☆تعريف بالكاتب☆

★ الأستاذ الدكتور عبد الناصر محمد النجار.

★ مواليد قرية شرياص، محافظة دمياط، يناير ١٩٦٧.

★ حصل على بكالوريوس الطب، جامعة القاهرة، عام ١٩٩٠، بتقدير عام امتياز مع مرتبة الشرف.

★ حصل على الماجستير فِي عام ١٩٩٤.

★ حصل على الدكتوراة فِي الجراحة عام ١٩٩٨.

★ أستاذ بكلية الطب منذ عام ٢٠١١.

★ رئيس قسم جراحة التجميل، كلية الطب، جامعة بني سويف حتَّى عام ٢٠٢٣.

★ حاصل على ليسانس الحقوق عام ٢٠٢١.

★ عضو الجمعية العالمية للتجميل **ISAPS**

★ عضو الجمعية المصرية للتجميل **ESPRS**

★ *الإصدارات السابقة* ★

★ حكاوي المندريش.. "نثريات" عن دار إبهار للنشر والتوزيع ٢٠٢٣م.

★ يوميات طالب من الأرياف.. "سيرة ذاتية" عن دار إبهار للنشر والتوزيع ٢٠٢٣م.

★ البر التاني.. "رواية" عن دار الزيات للنشر والتوزيع ٢٠٢٣م.

المُحتَوَيات

(١) الحلو غريب عن هنا!! ٧
(٢) نجفة ١٢
(٣) حسنات ١٧
(٤) بركاتك يا نجفة ٢٢
(٥) منتهى العبث ٢٨
(٦) الدرويش.. بداية الحكاية ٣٥
(٧) عيش وملح عند الدهان ٣٩
(٨) كلنا نجفة! ٤٤
(٩) رجائي.. صاحب السادوس ٤٩
(١٠) غبار النيزك ٥٥
(١١) عايزة أتوب! ٦٠
(١٢) فرجك يا رب! ٦٥
(١٣) هندمر النيزك ٦٩

(١٤) فوق النيزك..... ٧٤
(١٥) لحظات الخوف العظمى..... ٧٩
(١٦) البداية الجديدة..... ٨٤
☆ تعريف بالكاتب ☆..... ٨٨